مقدمة الكتاب

للاستاذ محمد توفيق السحار

اقترح المؤلف الفاضل المعروف بثقافته السامية ، وأدبه البليغ وآثاره القلمية النفيسة ، أن تكتب هذه الكلمة . وإنه ليشرفها أن يضعها بجانب مقدمته تكريماً للصداقة .

أما الكتاب فهدية إلى من شاء أن يعمل فى سبيل بلاده الشرقية « بإرادة وبصيرة وعلم وحزم » . وهو « من وحى الحوادث التى توالت على الدنيا » ووحى « الاطلاع » على المصادر التاريخية والسياسية والديبلوماسية التى تزيل الأوهام وتصحح الأفهام . لم يوضع على برنامج أعدّ له بدءا ، بل جمع أبحاثا سبق نشرها أو نشر بعضها . ولكن وحى الحوادث والاطلاع لم يمنع أن يجىء فحوى الكتاب وروحه ، والآراء الذاتية الجديدة الواردة فيه ، ثمرةً يانعة من شعور المؤلف وقريحته مهداةً إلى القلوب والعقول؛ ولم يمنع أن تكون هذه الآراء سديدة — وإن اعتذر صاحبها من

أى خطأ محتمل بأنه إنسان يخطىء ويصيب متواضعاً باعتذاره تواضع الخبير المستنير، ولا أن يدل سياق فصول الكتاب وأقسامه على أن الذى رتبه عقل منظم عرف فن التأليف . وهو صنيع جدى ينتفع به من حضه الضمير على توخى المعرفة من كثرة المشتغلين فى شرقنا بالسياسة والدبلوماسية ، الرسميين وغير الرسميين .

والحق أننا ، نحن معاشر أهل الشرق الأدنى ، على ضلال سلجين فى السعى لمطامعنا الذاتية ، وفى غرورنا وأوهامنا السياسية ، وأساليب عيشتنا ومانسميه كفاحنا ؛ وصاحبنا على حق حيث يقول: « ستفرض على شعوب الأرض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة أشياء يتفوهون بها فيقولون أنها من عند أنفسهم » ؛ وعلى حق أيضاً إن هو قصد إراحة ضميره بنشر أبحاث لعلها تساعد فى إيقاظنا وهدينا الصراط المستقيم .

فان كثيرا من حوادث بلادنا وأحوالها ، قديما وحديثا ، لاتتبين حقائقه كلها إلا على ضوء كاف من واقع المنافسات الاستعمارية وتدخل بعض الدول الكبيرة فى شؤوننا ، وتغلغل النفوذ الأجنبى فى مصالحنا ؛ ونحن لانتمكن من خدمتها بحكمة وليس يتاح لنا الدفاع عنها ، فى حدود المستطاع ، إلا بقدر ما نعرف من

مصالح تلك الدول الحيوية وغير الحيوية ومن مصالح جيراننا ، وبخاصة فى زماننا هذا الذى أصبح فيه استقلال كل دولة صغيرة أو كبيرة شيئاً نسبياً، وتصرفُها فى سياساتها متأثراً من تصرف غيرها فى سياساته .

وتلك حقائق لا تؤخذ من الكتب المدرسية والجامعية ، ولا من الصحف والبرقيات والدعايات — وإن جاء فى أقوالها أحيانا تلميح يدرك مغزاه من يستطيع فهم الكلام على خلاف مقتضى الظاهر منه ، بل هى حقائق انما مظانها مثل هذا الكتاب الصادر عن تلك الثقافة النظرية العملية ، العديدة الألوان ، الوافية ، التى تهدى الشعور ويعتدل بها حكم العقل لرسوخ أصولها السليمة فى الوعى الباطن فلا يغترّ صاحبها بالظواهر ، وإلا فان البصيرة يكثر أن يعتريها ، أمام مناظر التاريخ أو الأحداث السياسية ، ما يشبه أوهام البصر فتقدر أن الجوهرى فى هذه المناظر أو الأحداث هو أبرز ما يلفت النظر منها ، ولا تدرك أن الخطورة انما هى للأمور القليلة الظهور ، المتسقة سيرتها ، الدائمة العامة .

فمن لا يتتبّع فى التاريخ ، مثلا ، سوى أعمال كبار ممثليه يرى فيه مناظر روائية جميلة لها وقع فنى رائق ؛ فان هو أدرك أن الأمور

يتصل بعضها ببعض ويرتبط بدا له عندئذ أن خلف المظاهر السطحية الروائية أمورا هى أقل حركة ولمعا وشأنا للناظر العادى الساذج ، ولكنها أجدر بلفت نظر المستطلع الذى يتوخى أن يعرف سر الأشياء ومصائر الأمور .

ومثل هذا المستطلع البصير يتضح له أن أقوى الأفراد من البشر حققوا لأنفسهم بالتسلط على الأضعفين ما لم يكن لذواتهم عنه غناء من أحوال العيشة الراضية ؛ ويتبيّن له أن طفيلية الأعزّة هى الغرض الظاهر أو الخفى ، المباشر أو غير المباشر ، من أكثر النظم التى تشكلت على توالى القرون وكوّنت إطار المدنية ، حتى بعض ما يتضمّن كونته ؛ ويستيقن أن الكفاح لا ينقطع : كفاح أفراد فى سبيل السلطة العليا ، وكفاح طبقات للسيادة فى شعب ، وكفاح شعوب لحيازة الأرض وحاصلاتها ؛ فمن جهة ، يجد الحروب والمعاهدات الدولية ، والثورات والمقاومات ، والاختلافات الحزبية والأزمات والتراضى ، وكل أولئك أمور تدل على جهد الأنانية الطفيلية فى أفراد وجماعات غرضهم استغلالٌ ينيلهم أكثر ما يمكن من المنافع ؛ ويجد من الجهة الأخرى مقاومة الفرائس التى تدافع عن نفسها وما فتئت تغيّر وجه الأنسانية ؛ وليس بد للضعيف من

المصانعة تحقيقا لأغراضه ، فى حدود المستطاع ، على التدريج حتى لاتقعده القوى المختلفة التى لا قبل له بها عن هذه الأغراض ، ولا وسيلة أمامه للتفادى من بعض الأضرار بغير حكمة ومصانعة ليست تحول دون التقدم بتؤدة نحو مثله الأعلى .

من أجل كل ما تقدم بيانه كان من أصول التأليف المفيد فى « الاستعمار الفرنسى فى شمال افريقية » أن يبدأ المؤلف بإيقاف كل قارىء على أصل الاستعمار الحديث واطواره ، وتوسعه الجارف ومشاكله وأثر هذا التوسع ؛ وأن يُفهم العامة من المتعلمين ، والكثرة من خاصتهم معهم ، أن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح فى سبيل تحرير الشعوب « يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره ، وأهميته ومداه ، لكى نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكى يركز على أساس منطق معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائياً » . فإذا هم وقفوا على تلك الأمور كان من أنفع مايتضح لهم أن السيطرة الأوروبية جاءت بنتيجتين ، إحداهما

الاستعمارية وما تنوى فرنسة إنشاءه من اتحاد بين مستعمراتها ؛ وحيث شرح السياسة الدينية التي تجريها الدولة الفرنسية اللادينية فى الأقطار الاسلامية الواقعة تحت حكمها .

الخلاصة أن هذا المجموع من الأبحاث كتاب جيّد ، يُعتمد عليه فى فهم موضوع الاستعمار وسياساته الدولية : ويجمل بمحب الاطلاع والاستنارة أن يثق به ، ويقرأه بعناية وتفكر وإمعان ، ليفهم مافى سطوره وما بين السطور ، أى ليدرك ما لم يقل مؤلفه مما قال صراحة وتلميحاً ، وعرضاً موجزاً لحقائق الواقع فى الشعوب والدول والسياسات والمنافسات الاستعمارية ، تلك الحقائق التى يجب الاهتداء بمنطقها . فهو كتاب ينفع زعماءنا وساستنا ، أخلصوا أو لم يخلصوا ، وينفع كل قارىء من الشرق العربى يريد ألاّ تضلّه البرقيات والسفسطات السياسية والدعايات .

القاهرة فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٤٨ محمد توفيق

الإهداء

إلى ذلك الرعيل من الرجال الذين قابلتهم فأوحت إلىّ عمالهم ونظراتهم وأقوالهم :

بالايمـان والثبات والتضحية .

إلى الطليعة الأولى من شباب الأمم المظلومة التى بدأت عمل بارادة وبصيرة وعلم وحزم والتى غرست فى نفسيتها رغبة التغلب على المصاعب وغريزة مواجهة الأخطار .

إلى الذين يؤمنون بحق الشعوب المظلومة فى الحياة ، من أبناء الشرق والغرب ومن أبناء فرنسا نفسها .

أقـــدم هذا الكتاب ؟

المؤلف

مقدمة المؤلف

الى القارىء الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله والصلاة والسلام على محمد المبعوث لهداية العالم الذى جاء بكلمة الحق وفصل الخطاب فجهر بالقول ثم قرن القول بالعمل حين قاد الكتائب وباشر القتال وقام بالثورة الكبرى يومئذ حقت كلمة الله . وتحررت ارادة الانسان وتحطمت الاصنام الزائفة بعد عشرة قرون من الطغيان والجبروت على الشرق واهله .

٢ — وبعد فهذا كتاب ليس لى الفضل فى إخراجه اذ جاء كله من وحى الحوادث التى توالت على الدنيا فهو مجموعة ابحاث وراء سبق لى نشرها اونشر بعضها فى مجلة الرسالة الغراء . ولذلك لم اضع له برنامجا او خطة منطقية ترمى الى هدف معين

٣ — ولا يظن القارىء اننى استجمعت كل المراجع التى وردت فى نهاية الكتاب وتصفحتها عند كتابته وانما هى مجموعة من الكتب التى قرأتها منذ سنوات فأثرت فى نظرتى لبعض الاشياء . لهذا فانا

مدين لها ولا اذكرها على سبيل التفاخر وانما على سبيل ارجاع الحق لاربابه .

٤ — ولقد تبدو بعض الاراء جديدة أو شخصية فهذه جاءت نتيجة دراسة بدأت منذ سنوات وبعد تفكير طويل لازمني مدة من الزمن ولهذا أراني مسئولا امام القارىء عن هذه الناحية واقول انني فكرت كانسان فإن خانني التوفيق واخطأت فليس ذلك الا لاني انسان ومن طبيعة البشر أن يوفقوا أحياناً وان يخطئوا أحياناً

٥ — تسير الأمور بخطوات سريعة على غير ما نبغي

فعند كتابة هذا الكلام كنا نواجه القوى المتجمعة لنزع اوطاننا من ايدينا .

اما اليوم فإنا نواجه القوى الجامحة التي تحاول ان تفرض الفناء والابادة علينا

فهل تغيرت اساليبنا ؟

وهل استيقظ النائم ؟

وماذا سيأتي به الغد ؟

هذه اسئلة يجيب عليها المستقبل

٦ — ستتغير الدنيا بعد عشر سنوات وستفرض على شعوب الارض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة

أشياء يتفوهون بها فيقولون انها من عند أنفسهم ولكنى مطمئن الى حقيقة ثابته : هى

سيرى قارىء هذه الابحاث انى لم احاول تضليله بتغيير الحقائق او التجنى على الحق وقد يأتى ناقد فيقول اننى كنت مخلصا مع نفسى اولا ثم مع القارىء فهذه كلمه حق اريد بها الدفاع عن حق .

والصلاة عليكم ورحمة الله وبركاته

جيزة القسطاط فى شارع الاهرام / ٤٠

١٢ شوال سنة ١٣٦١

١٧ اغسطس ١٩٤٨

احمد رمزى

مراقب

مصلحة التشريع التجارى والملكية الصناعية

بوزارة التجارة والصناعة